تجلّيات التعدّد الصوتي في الخطاب السردي

Demonstrations of vocal polyphony in narrative discourse

أستاذ مساعد "أ" مصطفى بربـــارة

جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة

البريد الإليكتروني berbaramus38@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/04/20 تاريخ القبول:2019/06/05 تاريخ النشر: 2019/09/21

ملخص:

تسعى هذه الورقات البحثية إلى تقديم عرضٍ نظريٍّ لمقولات نقديّة استطاع الناقد الروسي ميخائيل باختين، من خلالها، أن يوجّه أنظار النّقّاد إلى ربط الخطاب بسياقه الاجتماعي والتّاريخيّ، واستند في طرح مفهوم الحواريّة Dialogisme على مجموعة من المصطلحات التي استلهم معانيها من مقارباته النّقديّة التي طبّقها على بعض الأعمال الرّوائيّة، إذ يرى أنّ الرواية هي النّوع الذي توّج النّثر، وكانت أعمال دوستويفسكي هي المَخْبَر الذي استوقف باختين لابتكار مقولاته النّقديّة، وميّز من خلالها بين صنفين روائيين أساسيين؛ صنف الرّواية ذات الصّوت الواحد، وصنف الرّواية متعدّدة الصوت Polyphonique، إذ يكتسب خطاب الصنف الثاني دلالته الرّاهنة من خلال تفاعله مع واقعة اجتماعيّة تخضع لمكان وزمان محددين، فالخطاب، في نظره، هو الكلمة الملفوظة في سياق تواصليّ، تشكّل من خلاله بنيته الدّلاليّة.

الكلمات المفتاحية:

تعدّد الأصوات؛ الخطاب السردي؛ الكلمة في الرواية؛ نسق مغلق؛ السياق الاجتماعي.

ABSTRACT :

These research papers speek to present a theoretical presentation of criticisms that the Russian critic Mikhail Bakhtin, through which he could face the attention of critics to link the discourse to the social and historical context, and was based on the introduction of the concept of dialogue Dialogisme on a set of terms that inspired the meanings of monetary approaches that applied On some works of fiction, he sees that the novel is the kind that crowned it. Dostoevsky's work was the detective who took Bakhtin to invent his critical essays, distinguishing between two major novelist novels, the one-volume novel and the Polyphonique, Line The second category is its current significance through its interaction with a social reality that is subject to a specific place and time. In its view, the discourse is the spoken word in the context of communicative, through which it forms its semantic structure.

Keywords:; Dialogisme ; Fiction the one-volume novel ; Polyphonique ; Interaction ; Context .

مقدّمة:

في بدايات القرن العشرين، شهدت الحياة الثّقافيّة في الغرب ميلاد نهضة فكريّة عامّة، تغذّت من تيارات فلسفيّة كبرى، كانت المدرسة الألمانيّة في طليعة تلك المرجعيّات التي تساهم في تشكيلها. وكان لهذه النّهضة تأثيرا واضحا في السّاحة الأدبيّة في الاتّحاد السوفياتي، حيث ظهرت مجموعة من الأدباء على شكل

حلق مثّلت هذا الدّفق الثّقافي في أخصب صوره، وكانت "حلقة البحث الكانطيّة" من أبرزها، إذ كانت تضمّ جماعة من الباحثين تهتمّ بقضايا الأدب والفلسفة والفنّ، فشاركوا في المناظرات العامّة، وإلقاء المحاضرات الرّسمية.[1]

كان ميخائيل باختين من أبرز الأعضاء المؤسّسين لهذه الحلقة، وسعى من خلالها الإعلان عن آرائه الجديدة في الأدب، متخفّيّا تحت أسماء مستعارة، و"لقد كان من السّهل بالنّسبة لباختين أن يوافق على طلب اثنين من أصدقائه وحواريّيه، فولوشينوف، وميدفيديف، أن تظهر أعماله بتوقيعهما، مع الموافقة على ظهور جميع التّغييرات التي أحدثاها في هذه الأعمال.[2]

لعلّه من نافلة القول أن يسعى البحث إلى التّحقيق في ملابسات هذه القضيّة،[3] إلاّ أنّ مواقفه المعارضة للتّوجّه الفكريّ للسّلطة الحاكمة، قد يكشف بعض الأسباب، وتودوروف نفسه، يرجّح هذا بقوله:"قُبض على باختين لأسباب ظلّت غير معروفة ولكنّها تكون متعلّقة بارتباطه بالمسيحيّة الأرثوذكسيّة."[4]

قضى باختين آخر سنوات عمره، بعد السّجن، يصارع المرض وآلام العزلة في موسكو ومات عام 1975م، عن عمر يناهز الثّمانين عاما.[5]

يُعتبر البلغاري تزفيتان تودوروف من بين النّقاد الأوائل الذين اهتمّوا بفكر باختين، كما كان له الفضل الكبير في تقديمه إلى القارئ الأوروبيّ، ولذا سيشكّل مؤلّفه "ميخائيل باختين، المبدأ الحواريّ" مصدرا مهمّا لهذا التقديم النظري لمقولات "باختين" النّقديّة.

في سياق عرض تودوروف لثقافة باختين، تمكّن من إرجاعها إلى مشاربها الأولى وأصولها المعرفيّة، وعزاها إلى "الجماليّات الرّومنسيّة الكبرى، من آراء غوته وفردريك شليغل وهيجل."[6]

إذا كانت الفلسفة الألمانيّة مثّلت العين المعين التي نهل منها باحتين معارفه، وتمكّن بفضلها من بلورة أفكاره النّقديّة، فإنّه من الإنصاف الإقرار بجهوده الفرديّة وآرائه الجريئة التي ساعدته على قلب مفاهيم الشّكلانيّة التي تجاوزها بعد أن نخلها، وتشرّب بمواقفها النّقديّة، على الرّغم من تحفّظ نّقّاد كثيرين من تحديد موقفه الصّريح من الشّكلانيّة الرّوسيّة. فتودوروف، وهو أقرب النّاس إلى فكره، يجزم أنّ "باختين هو ما بعد حداثي (Post-Formaliste)[7]: إذ أنّه يتجاوز الشّكلانيّة، لكن بعد أن يمتصّ تعاليمها"،[8] ومن أهمّ الانتقادات التي وجّهها باختين إليهم، أنّهم اختزلوا مشاكل الأدب في مسائل لغويّة، وأهملوا المقوّمات الأخرى التي تربط العمل الإبداعي بعالمه الأكبر، وأنّهم " كانوا مخطئين في عزلهم دراسة الأدب عن دراسة الفنّ بعامّة، وبصورة أكثر دقّة عزلهم هده الدّراسة عن علم الجمال، ومن ثمّ الفلسفة."[9]

ساق باختين أمثلة يدعم بها رأيه عن بعض النّقّاد المنتصرين للشّكل، إذ جعلوا الرّواية خارج الفنّ واعتبروها مفتقرة للعناصر الجماليّة، ومن هؤلاء شبيت الذي "ينكر إنكارا تامّا القيمة الجماليّة للرّواية، فالرّواية (عنده) جنس بلاغيّ خارج الفنّ، إنّها "الشّكل المعاصر للدّعاية الأخلاقيّة"، والكلمة الفنيّة هي الكلمة الشّعريّة."[10]

تمخّضت انتقادات باختين للشّكلانيين الرّوس عن إبداع نظريّة تؤسّس لمقولات جديدة في فهم الأعمال النّثريّة عامّة، والعمل الرّوائي خاصّة، أنكر فيها عليهم الجمود الذي "جعل الرّواية، ردحا من الزّمن،

موضع دراسة إيديولوجيّة مجرّدة، وتقويم اجتماعي دعائي فقط... مقابل هذه النّظرة الإيديولوجيّة المجرّدة بدأ الاهتمام يتصاعد في نهاية القرن الماضي بالمسائل المشخّصة للمهارة الفنيّة في النّثر والقضايا التّقنيّة للرّواية والقصّة."[11]

حصر باختين انتقاده للشّكلانيّة الرّوسيّة في كونها عزلت العمل الإبداعي عن سياقه الخارجيّ، وصبّت اهتمامها المركّز على نسقه المغلق، وبهذا، يرى أنّها سطّحت الدّراسة الإيديولوجيّة، وجعلت من التّفسير الاجتماعي مجرّد مقولات منفصلة عن مضمون النّص، ومن هنا، كان مُبتدأ تفكيره في ربط الكلمة بسياقها الاجتماعي التلفّظي، ورأى أنّها تشقّ طريق معناها متقاطعة مع أصوات أخرى، لينتج هذا التّفاعل بدوره مقولات استندت عليها نظريته في خطّ مسارها النّقديّ، كان من أهمّها؛ مقولة الحواريّة وتعدد الأصوات.

1- حوارية الخطاب السردي:

1-1- في مفهوم الحوارية:

في البدء، يتوجّب تحديد المفهوم المعرفي للحواريّة "Dialogisme" وفق الطّرح الباختينيّ، فهو، في نظره، يتلخّص في كون "كلّ خطاب، عن قصد أو عن غير قصد، يقيم حوارا مع الخطابات السّابقة له، التي تشترك معه في الموضوع نفسه، كما يقيم، أيضا، حوارات مع الخطابات التي ستأتي والتي يتنبّأ بها ويحدس ردود فعلها."[12] فالخطاب، في نظره عندئذ، هو امتداد للخطابات السّابقة واللاّحقة في الوقت نفسه، على خلاف ما كان سائدا من أنّ الخطاب هو مجرّد نسق مغلق، تحتكم فيه الكلمة إلى سياقها الدّاخليّ الذي يخضع للمعياريّة الجاهزة.

جعل باختين من هذا الطّرح منطلقا أرساه في أعماله النّقديّة، فكانت آراؤه المبثوثة بين مؤلّفاته: " الفلسفة والماركسيّة"، " قضايا شعر ديستوفسكي"، " الكلمة في الرّواية"، تؤسّس لنظريّة الكلمة (الخطاب)، حيث فصل فيها بين الدّلالة المعجميّة للكلمة التي يحتفي بها الفكر الأسلوبي التّقليدي، والكلمة الحيّة التي هي موضوع ومرجع الرّواية التي تعالجها، فـ"الكلمة في الفكر الأسلوبي التقليدي لا تعرف إلاّ ذاتها (سياقها) وموضوعها وتعبيراتها المباشرة ولغتها الواحدة والوحيدة، أمّا الكلمة الأخرى، الموجودة خارج سياقها، فلا تعرفها إلاّ بوصفها كلمة محايدة من كلمات اللّغة، إلاّ كلمة لا تخصّ أحدا، إلاّ إمكانيّة كلاميّة"،[13] أمّا المفهوم الذي يؤسّس له باختين فإنّه يتجاوز هذا الطّرح التّقليدي الذي يقطع الكلمة عن حبال تواصلها بالكلمات الأخرى، ويكون مآلها الجمود، وفي مقابل هذين المفهومين، كان من المنطقيّ، أن تكون الكلمة الحيّة، وأنّ " أيّ كلمة حيّة، لا تواجه موضوعها بشكل واحد: فبين الكلمة والموضوع، وبين الكلمة والمتكلّم، وسط لدن يصعب النّفاذ منه في الكثير من الأحيان، وسط من الكلمات الأخرى، كلمات الغير في هذا الشّيء نفسه والموضوع نفسه، ولا تستطيع الكلمة التّفرّد والتّشكّل أسلوبيا إلاّ في عمليّة التّفاعل الحيّ مع هذا الوسط الخاصّ، المتميّز."[14] فالكلمة الحيّة يساوي وجودها وجود كلمات الآخرين فيها، قبولا أو رفضا أو تقاطعا، فلا وجود لكلمات فرادى، فهي تحقّق وجودها من خلال صراعها وتأثرّها بكلمات أخرى، و تقاطعها المتوتّر مع كلمات

لاحقة. وهذا كلّه يعيّن الكلمة كيانا حيّا، سيكون في علاقات التأثر والتأثير، كما لو كانت حياة الكلمة جملة العلاقات الاجتماعيّة التي تعبرها."[15]

تكتسب الكلمة حيويتها، وفق تصوّر باختين، من خلال تفاعلها مع كلمات أخرى، أي أنّ "كلّ كلمة مشخّصة (كلّ قول) تجد دائما الشّيء، الموضوع المتوجّه إليه مفترى عليه إن صحّ التّعبير، مختلفا فيه، مقوّما، ملفوفا بسديم كلمات الآخرين التي قيلت فيه أو على العكس، مضاء بنورها. إنّه مكبّل ومخترق بالأفكار العامّة ووجهات النّظر المختلفة وبتقويمات الآخرين ونبراتهم"[16]، ولا يمكن أن تُصَادَف كلمة طاهرة لم تُخْتزَن بطبقة من المعاني السّابقة، فالكلمة العذراء لا وجود لها، ولا يمكنها أن تكون إلاّ في خطاب "آدم" - عليه السّلام- من وجهة نظر باختين، فهو يؤكّد على هذا المعنى بقوله"الكلمة في كلّ طرقها إلى الموضوع وكلّ توجّهاتها إليه تلتقي بكلمة الآخر، ولا يمكنها إلاّ أن تدخل في تفاعل حيّ متوتّر معها. آدم الذي توجّه بالكلمة الأولى إلى عالم بكر لم يفتر عليه، آدم هذا هو الوحيد الذي كان بإمكانه فعلا تفادي هذا التّوجّه المتبادل مع كلمة الآخر في الموضوع الواحد حتّى النّهاية."[17]

1-2- الخطاب السرديّ؛ بين أحادية الصوت وتعدّده:

استطاع باختين أن يوجّه أنظار النّقّاد إلى ربط الخطاب بسياقه الاجتماعي والتّاريخيّ، واستند في طرح مفهوم الحواريّة Dialogisme على مجموعة من المصطلحات التي استلهم معانيها من مقارباته النّقديّة التي طبّقها على بعض الأعمال الرّوائيّة، إذ يرى أنّ الرواية هي النّوع الذي توّج النّثر، وكانت أعمال دوستويفسكي هي المَخْبَر الذي أقام فيه باختين تجاربه النّقديّة، وميّز من خلاله بين صنفين روائيين أساسيين؛ صنف الرّواية ذات الصّوت الواحد، وصنف الرّواية متعدّدة الصوت Polyphonique، ويرى باختين أنّ معظم المؤلّفين "يصرّون على إرغام بطل الرّواية على التّعبير عن آرائهم، ويصف مثل هذه الرّوايات بالرّوايات المونولوجيّة، أي شبيهة بالمونولوجات التي يحتكر الحديث فيها شخص واحد، أمّا في الرّواية البوليفونيّة (متعدّدة الأصوات) فإنّ الرّوائي يتخلّى عن هذه النزعة الأتوقراطيّة ويحرّر البطل وبقيّة الشّخصيات الرّوائية من سلطته البيروقراطية والإيديولوجية ويخلق إمكانية لظهور مختلف أشكال الوعي، والمصارعة داخل العمل الرّوائي."[18]

يشيد باختين بمهارة دوستويفسكي الرّوائيّة ويؤكّد على سبقه في إدراج مفهوم تعدّد الأصوات بوصفه نوعا من أنواع الحواريّة فبعد "دوستويفسكي دخلت التّعددية الصّوتية Polyphony بقوّة عالم الأدب ... إنّه يحتاج في حواريته، خصوصا بالاستناد إلى الخبرة الذاتيّة لشخصياته، عتبة من نوع خاصّ، و تحقّق حواريته نوعا خاصّا (متميّزا) وجديدا من أنواع الحواريّة"[19]، وكعرض لنموذج يخالف دوستويفسكي، وسم الأعمال الأدبيّة لـ"تولستوي" بأنّها أحاديّة الصوت، وأنّ عالمه "هو عالم مونولوجي يتوفّر على وحدة متراصّة متناغمة ... في هذا العالم ليس هناك صوت ثان إلى جانب صوت المؤلّف؛ ومن ثمّ، فليس هناك مشكلة خاصّة بتوحيد الأصوات أو وضع خاصّ بوجهة نظر المؤلّف."[20] ويبدو أنّ عالم تولستوي بدا لباختين، في الوهلة الأولى، أنّه يعتمد على صوته الأحادي وأنّه يسكن في كلّ أصوات شخصيات رواياته، لكن ما فتئ يستقرّ هذا الرّأي في ذهن باختين حتّى أتى بما يناقضه فيما بعد (سنة 1975م)، وأدرك أنّه "يتسم الخطاب، في عمل تولستوي،

بحوارية داخلية شفّافة، إذ يدرك تولستوي بحدّة ونفاذ، في الشّيء وكذلك في أفق القارئ، الحواريّة التي تتميّز بخصائصها الدّلاليّة والتّعبيريّة."[21]

إنّ هذا التّحفّظ الذي أبداه باختين، من رأيه السّابق في أعمال تولستوي، جعله يصدر حكما مطلقا، لم يستثن منه أيّ خطاب من احتوائه على المبدإ الحواري، و أنّ " كلّ تلفّظ – مونولوج، حتّى عندما يتعلّق الأمر بكتابة على نصب تذكاريّ، يشكّل جزءا لا يتجزّأ من التّواصل اللّفظيّ. وكلّ تلفّظ، حتّى في شكله المكتوب الجامد، هو جواب على شيء ما ويكون مبنيّا في ذاته مثلما هو"[22].

إذن، فكلّ خطاب، في نظر باختين، قد قيل من قبل، بصورة أو بأخرى، ومن العسير تجنّب تقاطع خطاب لاحق بخطاب سابق يحمل الموضوع نفسه، وأنّ "التّوجيه الحواريّ هو، بوضوح، ظاهرة مشخّصة لكلّ خطاب، وهو الغاية الطّبيعيّة لكلّ خطاب حيّ يفاجئ الخطاب خطاب الآخر بكلّ الطّرق التي تقود إلى غايته ولا يستطيع شيئا سوى الدّخول في حوار حادّ وحيّ."[23] ويكتسب الخطاب تفاعله الحادّ من سياقات اجتماعيّة مختلفة، فالذي يوجّه كلمته إلى الآخر يتوقّع منه جوابا يجعله محكوما به، متفاعلا معه، ولذلك فإنّ "كلمة الحديث الحيّة تتوجّه مباشرة وبفظاظة إلى الكلمة- الجواب الآتية: إنّها تستثير الجواب وتتوقّعه وتتوضّع باتّجاهاته. فالكلمة وهي تتشكّل في جوّ المقول سابقا، تتحدّد أيضا بالكلمة الجوابية التي لمّا تُقَلْ، لكنّها الإجبارية المتوقعة."[24]

يكتسب الخطاب دلالته الرّاهنة من خلال تفاعله مع واقعة اجتماعيّة تخضع لمكان وزمان محددين، فالخطاب هو الكلمة الملفوظة في سياق تواصليّ، تشكّل من خلاله بنيته الدّلاليّة، و"يمثّل الوضع اللّفظي الخارجيّ مجرّد سبب خارجيّ للتّلفّظ فقط؛ إنّه لا يعمل من خارج مثل قوّة آليّة، على النّقيض من ذلك، يدخل هذا الوضع التلفّظ كعنصر ضروريّ مشكّل لبنيته الدّلالية"[25]

بهذا الطّرح، يؤكّد تودوروف أنّ باختين كان سبّاقا في إدراج مفهوم الوضع اللّفظيّ الخارجيّ لأنّه "لم يكن وجود مثل هذا السّياق معروفا قبل باختين إذا نُظر إليه بوصفه شيئا خارجيّا بالنّسبة للتّلفظ بينما أكّد باختين أنّه جزء متمّم للتّلفّظ"،[26] ولعلّه من الرّاجح أنّ إصرار باختين على الوضع الاجتماعي للمتحاورين في اعتباره أنّ التّلفّظ ليس عملا خاصّا بالمتكلّم وحده، ولكن هو نتيجة لتفاعله مع المستمع الذي يدمج تفاعله أيضا مع التّفاعل الخاصّ بالمتكلّم سلفا، ومنه اعتبر باختين أنّ التلفّظ ينشأ "بين شخصين منتميين عضويا إلى المجتمع، وإذا لم يكن هناك محاور فعليّ فسوف نفترض مقدّما هذا المحاور في شخص، لنَقُلْ، إنّه ممثّل طبيعيّ للفئة الاجتماعيّة التي ينتسب إليها المتكلّم. إنّ الخطاب موجّه للشّخص المخاطب المعني، موجّه إلى ما يكونه ذلك الشّخص."[27] وبالتّالي فالتّركيز لا يكون على الملفوظ L'énoncé بقدر ما يكون على التّلفّظ L'énonciation في عمليّة التّواصل الشّفهية، وأن لا يكون الكلام معزولا اعتباطيا، فالسّياق الاجتماعي هو الذي يفرض هذه الشّفهية التي "تجري بشكل تبادل الملفوظات أي بشكل حواريّ."[28]

لم يحصر باختين المستمع في المُحَاور الفعليّ (العضويّ) في عمليّة التّواصل التلفظيّة، بل عمّق طرحه إلى وجود محاور ضمنيّ يتمثّل في الفئة الاجتماعيّة، فالخطاب هو نتاج علاقات حواريّة "خاصّة ومميّزة بصورة عميقة ولا يمكن اختزالها إلى علاقات من نمط منطقيّ أو لغويّ أو نفسيّ أو آليّ، أو أيّ نوع من

العلاقات الطّبيعيّة. إنّها نمط استثنائيّ وخاصّ من العلاقات الدّلاليّة التي ينبغي أن تتشكّل أجزاؤها من تعبيرات برمّتها (أو تعبيرات تعدّ تامّة أو تتضمّن احتمال كونها تامّة)، يقف خلفها (ويعبّرون عن أنفسهم) فاعلون متكلّمون حقيقيون أو فاعلون متكلّمون محتملون، مؤلّفو التّعبيرات موضوع الكلام."[29]

يربط باختين الأفعال اللّفظيّة بالواقعة الاجتماعيّة، ويوليها قدرا كبيرا من الاهتمام في النّص الرّوائيّ، حيث يتجسّد التّواصل اللّفظيّ بوضوح وتتقاطع الخطابات فيها، ومن ثمّ لم تكن "صورة الإنسان في ذاته هي المميّزة في الجنس الرّوائيّ، بل صورة لغته."[30]

انطلاقا من هذا التّصوّر، يرى باختين أنّ الأهميّة الكبرى للإنتاج السردي (الرّوائيّ) تتجلّى في ثلاثة مظاهر من هذا التّفاعل؛ أمّا الأوّل فهو القيمة التّراتبيّة للشّخصيّة (أو الحدث) التي تشكّل محتوى التلفّظ، وأمّا الثّاني فينحصر في درجة قرب هذه العناصر المذكورة من المؤلّف، وأمّا الثّالث والأخير فهو العلاقة المتبادلة بين المتلقّي والمؤلّف، من جهة، والمتلقّي والشّخصيّة، من جهة ثانية،[31] والحوار القائم بين هذه العناصر الثّلاثة المكوّنة للعمل الأدبيّ يشكّل جزءا من تشكّل الخطاب فيه، فباختين يستدرك هذا التّلازم بقوله: "سوف ننظر إلى المؤلّف والشّخصيّة المتلقّي، لا بوصفهم خارج الحدث الفنّي، ولكن بقدر ما يدخلون في الإدراك الفعليّ للعمل الأدبيّ وبقدر ما يكوّنون عناصره المشكّلة الضّروريّة ...في المقابل، فإنّ جميع التّعريفات التي سيقترحها مؤرّخ الأدب أو مؤرّخ المجتمع من أجل التوصّل إلى تعريف المؤلّف، وشخصياته (سيرة المؤلّف؛ الكشف، بدقّة أكبر، عن أهلية شخصياته من المنظور التّاريخيّ الزّمنيّ والمنظور الاجتماعيّ، ... الخ)، مستبعدة بوضوح هنا: إنّها لا تدخل في صلب بنية العمل، وهي تبقى خارجه."[32]

يعمّق باختين مفهومه للحواريّة (Dialogisme) في التّجريد، فيجعلها ترنو إلى المستقبل، فالخطاب موجّه -في نظره- إلى أفق قرائيّ غير محدّد ومجسّد عضويا، فهو افتراضيّ، ولهذا وجب أن "ننظر إلى المستقبل كما ينظر إليه المؤلّف نفسه، فهو [أي المستقبل] ذلك الشّخص الذي يُوجَّه إليه العمل وهو الذي يحدّد، لهذا السّبب بالذّات، بنية العمل لا الجمهور الحقيقي الذي قرأ عمل هذا الكاتب أو ذاك بصورة فعليّة."[33]

إنّ انفتاح الخطاب السردي الرّوائي على أفق قرائي مفترض يمكّن المتلقّي من مشاركة المؤلّف في تشكيل خطابه، ويكون حضور الآخر (المتلقي) ماثلا في الكلمة الرّوائية المشحونة بأفكاره ومواقفه، فتتقاطع أصواتهم تحت مفهوم الحواريّة، فهي قد استطاعت "أن تحرّر الشّخصيّة الرّوائيّة من رقابة المؤلّف، ومنحتها حرّية واسعة في الحركة داخل العمل الرّوائي بعد أن تخلّصت من التّوجهات الإيديولوجية المباشرة للمؤلّف."[34] وبهذا التّواصل الحواريّ بين المؤلّف وشخصياته الرّوائيّة ينبثق المعنى المتجدّد الذي لم يصاحب المؤلّف قبل إنجاز عمله الرّوائيّ، فـ"الحقيقة لا يمكن أن تنبثق من إنسان واحد، إنّها تولد بين الذين يبحثون عنها معا، في عمليّة تواصلهم الحواريّ."[35]

يحمل كلّ خطاب ملفوظات كثيرة، وشخصيات متعدّدة، تتقاطع أصواتها في بعد متعدّد الأصوات Polyphonique تقوم فيه نزعته الحواريّة على " تفاعل سياقات مختلفة ووجهات نظر مختلفة وآفاق مختلفة ونظُم نبرات مختلفة و"لغات" اجتماعيّة مختلفة، فالمتكلّم يسعى إلى توجيه كلمته مع أفقه المحدّد لهذه

الكلمة في أفق الآخر (أفق الفاهم) و بالتّالي يدخل في علاقات حواريّة مع لحظات أفق الآخر، المتكلّم يخترق أفقا آخر هو أفق السّامع ويبني قوله على أرض الغير على الخلفيّة الزّكانيّة[36] للسّامع."[37]

يؤطّر التّفاعل الحواريّ النّاشئ بين المؤلّف والشّخصيات الرّوائية مرجعيّات إيديولوجيّة، تحرّك الصّراع القائم بينهم، والقول الحيّ المدرج "عن وعي لحظة تاريخيّة ما، وفي وسط اجتماعيّ ما، لا يمكن إلاّ أن يلامس آلاف الخيوط الحواريّة الحيّة التي نسجها الوعي الاجتماعيّ الإيديولوجيّ حول موضوع هذا القول، لا يمكن إلاّ أن يصبح شريكا نشطا في الحوار الاجتماعيّ، إنّه ينشأ منه، من هذا الحوار، تتمّة له وردّا عليه، ولا يأتي موضوعه عن مكان ما جانبيّ"،[38] بل يتوالد من مجموع المواقف الإيديولوجيّة التي يحرّك خيوطها المؤلّف دون أن يفرض عليها نواياه ومواقفه بشكل فاضح وجليّ، وهو المعنى نفسه الذي "يؤكّد (Polyphonique)، ليس له إيديولوجيّة واحدة: هي الإيديولوجيّة المشكّلة (Formatrice) الحاملة للشّكل."[39]

علّقت عليه جوليا كريستيفا Julia Kristéva بقولها: "إنّ الإيديولوجيا، أو على الأصحّ الإيديولوجيات، موجودة هنا داخل النّص الرّوائي مناقضة لبعضها البعض، ولكنّها غير مصنّفة، وغير مفكّر فيها، ولا محكوم عليها، فهي لا تقوم بوظيفتها إلاّ كمادّة لتشكيل العمل الرّوائي، وبهذا المعنى فإنّه النّص المتعدّد الصوت".[40]

كان للنّاقدة البلغاريّة كريستيفا فضل كبير في تقريب مفاهيم باختين النّقديّة للوسط النّقديّ الغربيّ على الوجه المطابق لنسخته الأصليّة، فهي تؤكّد على تصوّر باختين القائم على نفي هيمنة المؤلّف بموقفه الإيديولوجي في عمله الرّوائيّ، "ولقد فُهِم باختين في الغرب على هذا النّحو بالذّات، أي إنّه يقول بحياد الكاتب المطلق، هذا الحياد الذي لا يمكن معه أبدا أن تكون للرّواية -في جملتها- دلالة إيديولوجية واحدة هي المعبّرة عن قصديّة المؤلّف."[41]

إنّ دعوة باختين إلى حياد المؤلّف وترك الحريّة لشخصياته الرّوائية التعبير عن إيديولوجياتها بحريّة لا يُفهم منه غيابه المطلق، ولا أن يصبح مجرّد ناقل لمواقفها، بل هو يدعو إلى تفاعلها حواريا لتتناغم أصواتها في نقاطع تارة وفي توازتارة أخرى، وتعدّد الأصوات الذي دعا إليه "ينتشر أيضا ويتخلّل خطاب المؤلّف الذي يحيط بالشّخصيات ويلفّها خالقا نطاقات خاصّة بالشّخصيات محدّدة ومتميّزة. وتتشكّل هذه النّطاقات من أشباه خطابات الشّخصيات، ومن أشكال متعدّدة من البثّ المستتر لخطاب الآخر، ومن الكلمات والتّعبيرات المتناثرة في هذا الخطاب، ومن اقتحام العناصر المعبّرة الغريبة لخطاب المؤلّف (الحذف، الأسئلة، التعجّب)، ومثل هذا النّطاق هو مجال فعل صوت الشّخصيّة الممتزج، بطريقة أو بأخرى، بصوت المؤلّف."[42]

لم تكن دراسة باختين لأعمال دوستويفسكي مجرّد مقاربة نقديّة تطبيقيّة، بل عرض من خلالها المعالم الكبرى للجانب النّظريّ الذي يحدّد مفهوم الحواريّة وتعدّد الأصوات، فالتّفاعل الحواريّ للشّخصيات الرّوائيّة عند دوستويفسكي يعرض ضمن سياق اجتماعيّ، بتلك المرجعيّات الإيديولوجيّة التي تتشكّل من ثقافة رسميّة، تتميّز بالصّرامة، وأخرى شعبيّة غارقة في الضّحك والسّخريّة.

الهوامش:

6. قائمة المراجع:

1. باختين، ميخائيل: الكلمة في الرّواية، ترجمة يوسف حلاّق، منشورات وزارة الثّقافة، دمشق، سوريا، الطّبعة الأولى، 1988.
2. تودوروف، تزفيتان: ميخائيل باختين والمبدأ الحواري، ترجمة: فخري صالح، الطّبعة العربية الثّانية، 1996، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، لبنان.
3. ثامر، فاضل: الصوت الآخر، الجوهر الحواري للخطاب الأدبي، دار الشؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، 1992.
4. درّاج، فيصل: نظريّة الرّواية والرّواية العربيّة، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء، المغرب، الطّبعة الأولى، 1999م.
5. لحمداني، حميد: النّقد الرّوائي والإيديولوجيا، من سوسيولوجيا الرّواية إلى سوسيولوجيا النّص الرّوائي، المركز الثّقافي العربي، الطّبعة الأولى، 1990م، الدّار البيضاء، المغرب.
6. M. Bakhtine: La poétique De Dostoïevski, Trad.KolitCheff, Ed Seuil, 1970.
7. Julia Kristéva, Présentation de Poétique de Dostoïevski, Paris, Ed Seuil, 1970.
8. M. Bakhtine, Le Marxisme et la philosophie du langage, trad du Russe et présenté par "Marina Yaguello", 1977
9. M. Bakhtine: Esthétique et théorie du roman, Trad.Daria Olivier, Paris, Ed Gallimard, 1978.

8. الهوامش:

[1]- ينظر: تودوروف، تزفيتان: ميخائيل باختين والمبدأ الحواري، ترجمة: فخري صالح، الطّبعة العربية الثّانية، 1996، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، لبنان، ص. 24.

[2]- المرجع نفسه، ص. 28.

[3]- أفرد تودوروف في كتابه المذكور سلفا، صفحات ناقش فيها قضيّة صحّة نسبة المؤلّفات لباختين أو عدم صحّةنسبتها إليه، ينظر: المرجع نفسه، ص. 29.

[4]- المرجع نفسه، ص. 25.

[5]- ينظر: المرجع نفسه، ص. 26.

[6]- تودوروف: ميخائيل باختين والمبدأ الحواري، ص. 163.

[7]- ترجم فخري صالح Post-Formaliste بـ"ما بعد حداثي"، ويبدو أنّ "ما بعد شكلاني" هو مقابل دقيق للمصطلح الأجنبي.

[8]- المرجع نفسه، ص. 85.

[9]- المرجع نفسه، ص. 80.

[10]- باختين، ميخائيل: الكلمة في الرّواية، ترجمة يوسف حلاّق، منشورات وزارة الثّقافة، دمشق، سوريا، الطّبعة الأولى، 1988، ص. 18.

[11]- المرجع نفسه، ص. 65.

[12]- تودوروف: ميخائيل باختين والمبدأ الحواري، ص. 16.

[13]- باختين، ميخائيل: الكلمة في الرّواية، ص29.

[14]- المرجع السابق، ص. 29.

[15]- ينظر: درّاج، فيصل: نظريّة الرّواية والرّواية العربيّة، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء، المغرب، الطّبعة الأولى، 1999م، ص. 66.

[16]- باختبن، ميخائيل: الكلمة في الرّواية، ص. 30.

[17]- المرجع نفسه، ص. 33. وينظر: تودوروف: المبدأ الحواري، ص. 125.

[18]- ثامر، فاضل: الصوت الآخر، الجوهر الحواري للخطاب الأدبي، دار الشؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، 1992، ص. 24.

[19]- تودوروف: المبدأ الحواري ، ص. 127.

[20]- المرجع السابق، ص. 126.

[21]- المرجع نفسه، ص. 124.

[22]- M. Bakhtine, Le Marxisme et la philosophie du langage, trad du Russe et présenté par "Marina Yaguello", 1977, pp. 105-106.

[23]- تودوروف: المبدأ الحواري، ص. 125.

[24]- باختين: الكلمة في الرّواية، ص. 34.

[25]- تودوروف: المبدأ الحواري، ص. 89.

[26]- المرجع نفسه، ص. 89.

[27]- المرجع نفسه، ص. 92.

[28] - M. Bakhtine: Esthétique et théorie du roman, Trad.Daria Olivier, Paris, Ed Gallimard, 1978, p. 156.

[29]- تودوروف: المبدأ الحواريّ، ص. 122.

[30] - M. Bakhtine: Esthétique et théorie du roman, p. 156.

[31]- ينظر: تودوروف: المبدأ الحواريّ، ص. 99.

[32]- المرجع نفسه، ص ص. 99-100.

[33]- المرجع نفسه، ص. 100.

[34]- ثامر، فاضل: الصوت الآخر، الجوهر الحواري للخطاب الأدبي، ص. 30.

[35]- Julia Kristéva, Présentation de Poétique de Dostoïevski, Paris, Ed Seuil, 1970, p. 18.

[36]- الزكانية: هي نحت لغوي لـ "الزمان و المكان"، ودرج عند اللغويين استعمال مصطلح "الزمكانية"، ويبدو أنّ المترجم يوسف حلاّق يؤثر إسقاط حرف الميم طلبا للتخفيف، وهذا المصطلح هو من ركائز حوارية باختين في مقولة الجنس الروائي، ويندرج ضمن مصطلح "الكرونوتوب chronotope" الذي ابتكره هذا الناقد الروسي.

[37]- Ibid, p. 18.

[38]- M. Bakhtine: La poétique De Dostoïevski, Trad.KolitCheff, Ed Seuil, 1970, p.155.

[39]- باختين: الكلمة في الرّواية، ص. 37.

[40]- المرجع نفسه، ص. 30.

[41]- لحمداني، حميد: النّقد الرّوائي والإيديولوجيا، من سوسيولوجيا الرّواية إلى سوسيولوجيا النّص الرّوائي، المركز الثّقافي العربي، الطّبعة الأولى، 1990م، الدّار البيضاء، المغرب، ص. 82.

[42]- تودوروف: المبدأ الحواري، ص. 142.